

كتب التاريخ العراقي روائيا

عبد الخالق الركابي

خلق مدينته من حكايات كائناته



● الركابي ومع أنه لم يكن بغداديا مثل فؤاد التكريلي أو عبد الملك نوري إلا أنه قرر أن يكون عراقيا. ذلك قرار يمكن استيعابه من خلال قراءة رواياته التي مزج من خلالها الأزمنة ليصل إلى الروح العراقية الحية.

فاروق يوسف

كاتب عراقي

بدأ شاعرا ودرس الفن التشكيلي. كتب قصصا ثم تفرغ للرواية. وحين انتقل إلى كتابة الرواية انفصل عن الشعر لتكتسب لغته صرامة البحث الواقعي الماكر وذلك من خلال لجوئه إلى الخيال باعتباره واحدا من مصادر الحقيقة. ذلك ما جربه أسلوبيا حين اتجه في ما بعد إلى كتابة تاريخ العراق روائيا.

"نافذة بسعة الحلم" تجربته الروائية الأولى تحمل عنوانا شعريا لرواية واقعية أو يمكن أن تكون كذلك. تلك الرواية هي أشبه بالفاصلة التي لن يعود إليها.

كان عليه وقد قرر أن يخترق طبقات من السرد التاريخي أن يبحث في الأصول لكي تبعث فيه الشخصيات الواقعية والمتخيلة قوة الإلهام.

تلك سيرة كائناته التي عصفت بحياته فكان يبدو كلما رأيته بقبعته كما لو أنه خرج لتوّه من سيرة رجل آخر. رجل يسبقه ويتكلم ببطء مثله وينظر إلى الآخرين باستفهام فيه قدر كبير من الإشفاق.

«نافذة بسعة الحلم» تجربته الروائية الأولى تحمل عنوانا شعريا لرواية واقعية أو يمكن أن تكون كذلك. تلك الرواية هي أشبه بالفاصلة التي لن يعود إليها

كان السؤال بالنسبة له "كيف يمكن أن يحتفظ المرء بهويته في إطار الرواية الحديثة؟" وهو ما دفعه إلى التنقل بين الهويات المتعددة التي شكّلت عنوانا لنبوغ الهوية العراقية. ولأنه لم يكن بغداديا مثل فؤاد التكريلي أو عبد الملك نوري فقد قرر أن يكون عراقيا. ذلك قرار يمكن استيعابه من خلال قراءة رواياته التي مزج من خلالها الأزمنة ليصل إلى الروح العراقية الحية التي تقف وراء التحولات السياسية التي شهدها العراق عبر قرون من الظلام ليصل إلى النصف الأول من القرن العشرين.

المسافر بين الأزمنة

هو رسول سلالات لا تزال حية من خلال حكاياتها. يمكنه أن يكون الابن والاب والجّد في رواية واحدة. كانت تلك لعبته التي أسهب في اختراع طرقها المتشعبة. كان لديه دائما ما يقوله وهو

من رواية
«سابع أيام الخلق»

قال الراوي: ولكن... أحدث الأمر بهذه الصورة؟ أم بشكل آخر؟ سؤالان عزّز جوابهما الآراء المتناقضة حول حقيقة "السيد نور"، فثمة من عد الأمر واحدة من كراماته، في حين أكد آخرون أن الأمر لا يخرج عن احتمالين: إما أن يكون مجبل هو الذي تسلسل من بيته، تحت جنح الظلام، حاملا صديقه المحتضر إلى جناح قلعته، أو أن "مطلق" نفسه استطاع الوصول إلى هناك زحفاً ووسط هذه الآراء المتناقضة بقيت الأعين ترمق التل بنظرات هلع أياماً وليالي. وبقيت الأسس ترد السؤال المفزع:

ترى ألا يُحتمل أن يكون قد أعدنا بهذا الوباء الرهيب؟ الطاعون!

إنها الكلمة المرعبة التي لا تكف الأفواه عن ترديدها، مشفوعة بالتفاننات دُعر نحو القلعة. الطاعون!

إنها الكلمة المقيتة التي تخطر في الأذهان تلقائياً طوال ساعات النهار، حتى إذا ما هرب الناس منها بالجوء إلى النوم طاردتهم في الأحلام. الطاعون!

إنها الكلمة التي تحول بين الآباء ومداعبة أطفالهم لحظة عودتهم من الحقول والبساتين متعبين: ترى أبحصدهم الوباء ليبقى فلدات أكبادهم من بعدهم دون معيل؟ أم كتب الله عليهم أن يروهم وهم يذنون تحت أبطانهم دون أن يملكو للقصاء رداً؟ الطاعون!

إنها الكلمة التي كانت تطفئ الأمال في عيونهم لحظة كانوا يتطلعون غرباً حيث تنداح حقول القمح على مدى البصر وقد انحنت السيقان تحت ثقل السمايل.

قال الراوي: ومرت الأيام، والأذان مرهفة في انتظار سماع الصرخة المتوقعة وهي تنطلق من فوق التل. كانوا موقنين من هذا الأمر حتى أنهم أخذوا يحددون موعد انطلاقها: غروب هذا اليوم، وحينما يخيب توقعهم كانوا يقولون: لا بل منتصف الليل.. أو صباح الغد.. أو عند الظهيرة.. لكن الأيام تعاقبت دون أن يسمعون تلك الصرخة إلى أن حل فجر يوم لا ينسى؛ فقد هبّ الجميع من نومهم القلق الحافل بالكوابيس على دوي الصرخة المنتظرة، وفتحوا الأبواب.

إلى تأكيد واقعة بعينها بقدر ما تسعى إلى أن تحقق وجودها بمعزل عن زمنها. يروي الركابي ما يعزز مهارته باعتباره كاتباً وفي الوقت نفسه فإنه يخلق تاريخاً مجاوراً. هل كان الركابي يكتب سيرته وهو يتنقل خفيفاً بين غرف عائلته؟ يقول "في ما يخص تجربتي الروائية فقد توزعت شذرات من سيرتي على العديد منها حتى أنني قد استعصم بها عن كتابة سيرتي الذاتية. بيد أن ذلك لم يمنعني من الحذر من الوقوع في مازق استنساخ التجربة الشخصية مما دفعني إلى ابتكار مدينة الأسلاف المفترضة ليتسنى لي بذلك التحرك بحرية في مدينة من نتاج مخيلتي جمعت فيها شذرات من المدن العراقية التي عشت فيها فضلاً عن مدن وهمية قد حلمت بها".

شعبه المتخيل يتسم بطبع شاعري مستلهم من المرثي العراقية التي تعود إلى سومر. ذلك ما يوحي بأن الركابي كان يسعى إلى كتابة ملحمة الخاصة التي يتصل من خلالها بالملاحم العراقية الخالدة. تلك فكرته عن رواية عراقية لم تُكتب من قبل

لم يكتب الركابي إذا بصناعة مدينته المتخيلة بل خلق شعبه المتخيل. وهو شعب يتسم بطبع شاعري مستلهم من المرثي العراقية التي تعود إلى سومر. ذلك ما يوحي بأن الركابي كان يسعى إلى كتابة ملحمة الخاصة التي يتصل من خلالها بالملاحم العراقية الخالدة. تلك فكرته عن رواية عراقية لم تُكتب من قبل. رواية معاصرة غير أنها لا تنسف الخيوط التي تصل بينها وبين الحكايات التي كتبت لها الخلود.

كتب عبد الخالق الركابي روايات يمكن النظر إليها باعتبارها جسراً يمتد بين ماضي العراق وحاضره من أجل أن يقرأ العراقيون تاريخهم بطريقة تحترم خيال أجدادهم من خلال حكايات ستظل نضرة إلى الأبد.

فعل الركابي. حيلة الركابي الفنية تتلخص في مزج ما بين الوقائع الموثقة وبين الحكايات الشفاهية التي سمعها أو تخيلها. ذلك المزيج لا يصنع تاريخاً غير أنه بطريقة أو بأخرى قد يخلق رصيدا لذاكرة، لا يمكن تخطيها. ولأن الوقائع التي عالجها الركابي بطريقة روائية لم تلمسها أيادي المؤرخين فإن نصوصه المكتوبة بمقنة قد تشكل مرجعاً لمن يهوى الالتفات إلى الماضي كما لو أنه خزانة حكايات.

سيرته الموزعة

يقول الركابي "منذ طفولتي وجدت نفسي وسط جو أسري تتحكم فيه أهواء الموتى أكثر من طموحات الأحياء. فتلك الحجر المعلقة مات فيها جدي وهذا التخت المكون ماتت عليه أختي وتلك السدرة المسكونة بالأرواح زرعها عمي قبل أن يلفظ أنفاسه بايام. ولم أن أمي إلا وهي في حداد دائم على موتها. ترثيهم كلما جنت الشمس نحو الغروب". من ذلك العالم استخرج الركابي مدينة الموتى التي بعث في أرواح سكانها الحياة من خلال رواياته المشوقة. تلك الكائنات التي تختبر قدرتها على العيش من خلال ما تنطوي عليه يومياتها من تأثير سحري، هو في حقيقته مستلهم من حكايات جانيبية، سيكون من الصعب التأكد من صديقتها وسط ذلك الفيض الجمالي الذي تنعم به لغة السرد.

ما بين الـ"هنا" والـ"هناك" يتنقل الركابي بخفة ودعة وهذوء كما لو أن كل شيء ممكن وما هو عسير واقعياً يمكن أن يكون يسيراً إذا ما بسطت الحكاية سجادتها أمامه. لذلك يمكن النظر إلى روايات الركابي باعتبارها سبيلاً لا ينقطع من الحكايات التي لا تهدف

"الراوي"، "قبل أن يخلق الباشق"، "سابع أيام الخلق"، "ليل علي بابا الحزين"، "سفر السمرمية"، "أطراس الكلام"، ثم "مقامات اسماعيل الذبيح" و"ما لم تمسه النار" 2016.

كتب في المسرح "البيزار" و"نهارات اليالي الألف"، وفي القصة القصيرة صدر له "حائط البنادق". وعن روايته "قبل أن يخلق الباشق" حاز على جائزة أفضل كتاب عراقي عام 1990. وبعد خمس سنين توجت روايته "سابع أيام الخلق" باعتبارها أفضل رواية عراقية. وفي العام 2017 نال الركابي جائزة سلطان العويس.

ليس صحيحاً أن يُقال إن الركابي تخصص في كتابة تاريخ العراق روائياً، فهو لم يكتب رواية تاريخية. غير أن ذلك لم يكن خطأ تاماً. ذلك لأن أحداً من روائي العراق لم يغامر في النيش في التاريخ العراقي بحثاً عن وقائع كانت بمثابة ركائز لما انتهت إليه الحال في العراق مثلما

يخترق الأزمنة ليكون الشخص الذي يكتب. يعثر الركابي على زمنه الروائي من خلال حدث، قد لا يكون واقعياً. سيكون ذلك الحدث الذي لم يقع هو البداية لحكاية ستجر وراءها حكايات. ذلك ما تعلمه الركابي من كتاب "الف ليلة وليلة" الذي يعود إليه دائماً كما يقول. تقنية الركابي في كتابة رواياته تستند أصلاً إلى مبدأ الحكاية التي تلد أخرى. وهي حكايات لا تلتزم بالتسلسل الزمني.

لقد تمكن منه ذلك الأسلوب. حين كتب روايته "أطراس الكلام" ليكون شاهداً على ما جرى في العراق بعد الاحتلال الأميركي فإنه وضع الابن والاب والجّد في مواجهة الحاضر الذي هو أشبه بالنبوة القاسية.

مغامر بين التاريخ وحكاياته

ولد عام 1946 في قضاء بكرة بمحافظة واسط، جنوب العراق. مطلع السبعينات تخرج من فرع النحت أكاديمياً، ومارس مهنة التدريس لمدة تسع سنوات وبعدها انتقل إلى بغداد للعمل في مجلتي "أفاق عربية" و"الأقلام" حتى عام الاحتلال الأميركي للعراق. نشر أولى قصائده في مجلة "الأداب" اللبنانية وأصدر كتابه الأول وهو مجموعته الشعرية الوحيدة "موت بين البحر والصحراء". وكانت "نافذة بسعة الحلم" روايته الأولى. بعدها توالت إصدارات رواياته "من يفتح باب الطلسم"، "مكابدات"، "عبدالله العاشق"،

